المحاضرة الثانية من السداسي الثاني

أولا_ الإجراءات التمهيدية للبحث الأثري

يشير الكثير من مؤرخي علم الآثار وفي مقدمتهم رودريغو مارتين غالان إلى أن علم الآثار نفسه يعتبر العلم الوحيد بين بقية العلوم التطبيقية التي تهدم هدفها الأصلي أي موضوع الدراسة الأثرية في الميدان، من خلال ما ينجز من أعمال الحفر وما يتبعها؛ والتي يمكنها أن تؤدي إلى تحطم اللقى الأثرية المدفونة في باطن الأرض دون قصد الإتلاف. كما ينبغي أن لا نفوت على طلبة الدراسات الأثرية أن يفهموا المبدأ السابق مضافا إليه أن هذه العملية في حد ذاتها هي بمثابة عملية جراحية ينجزها جراح ماهر له من الخبرة والدراية الكافية ما يناسب العمل المكلف القيام به. مع مراعاة الدقة والتنظيم في العمل، ثم النظافة في الحقل الأثري. فعدم الدقة سينجر عنه من غير شك نتائج علمية أقل ما يقال بشأنها أنها قليلة الأهمية، وسيؤدي إهمال التنظيم إلى فقدان العديد من المعلومات والمعطيات المهمة التي ينبغي ألا تغيب عن ذهن الأثري لحظة واحدة؛ وفي غياب النظافة يتعذر فهم ومتابعة ما يحدث في الموقع أثناء مجريات عمليات المسح، والحفر والتنقيب[1].

يحسن بنا القول أن الزمن الذي كان يبحث فيه المنقبون عن أشياء مثيرة مثل الكنوز، والقصور، والمدن المندثرة قد ولى على الرغم من كون النتائج المترتبة عن هذا الأمر من شأنها أن تضيف معلومات قيمة. لكن في الوقت الراهن تغيرت الكثير من الأمور نتيجة اكتساب الخبرة والاستفادة من تجارب الماضي ما سمح بمعرفة أن العمل عندما يكون متقن يمكن أن يزود بمعطيات ذات أهمية. وهذا يدفعنا لفهم فترات تاريخية كانت غير معلومة في الماضي السحيق. فبواسطة علم الآثار يمكننا فهم مجتمعات لم تترك أدلة مكتوبة خاصة المجتمعات التي ترجع إلى فترات ما قبل التاريخ، وبدراسة الإنسان والبيئة القديمة من بداية

1_ رودريغو مارتين غالان: **مناهج البحث الأثري ومشكلاته، تعريب خالد غنيم**، معهد ثربانتس، دمشق، سوريا، 1998.، ص، 13.

الزمن الجيولوجي الرابع، بالاعتماد على البقايا الأثرية المباشرة أي الأدوات الحجرية، أو العظمية، أو الأسلحة، أو الرسومات الصخرية وما إليها يستخلص منها طبيعة ونمط الحياة لإنسان هذه الفترة التاريخية المبهمة [2].

واعتمادا على علم الآثار وحده يمكننا أن نعرف شيئا يسيرا عن البنى التنظيمية لتلك الحياة، وعن بعض المظاهر التي كانت سائدة في العلاقات الداخلية بين أفراد هذه الحقبة الموغلة في التاريخ[3]، وطبيعة العلاقات ككل التي تربط هذا الإنسان بمجتمعه وجيرانه والمجتمعات المتبقية في وسطه الجغرافي الممتد. وهناك بطبيعة الحال مجتمعات بدائية أخرى مختلفة عن العصر الذي لم تظهر فيه الكتابة ولم تترك أثرا ماديا يدل عليها، وقد استفاد علماء الآثار من بقايا تلك المجتمعات المجاورة التي ارتبط بها الإنسان ومجتمعه بعلاقات وطيدة مثل التجارة أو الحرب شأن المجتمعات المحلية في أستراليا. ثم أن هناك لاحقا حضارات عريقة كالسومرية، والأكادية فيما بين النهرين دجلة والفرات، أو في زمن الإغريق والرومان، والبيزنطيين حتى الحضارة الإسلامية كانت قد خلفت أكواما هائلة من الوثائق المدونة غير أنه لا يمكن تجاوزها دون دراسة المظاهر السياسية، والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية التي كانت سائدة في هذه الحضارات. مما يتطلب معرفة معمقة حول هذه الحارات تستدعي إنجاز عمل جدي، وعملي، ومتكامل يراعى فيه الوثائق المدونة والمظاهر التي كانت سائدة، ووصلتنا من طريق غير الوثائق. والأكيد أن ثمة كتابا مسطورا مدفونا في طبقات الأرض، وكل طبقة من هذه الطبقات تشكل صفحة من هذا الكتاب الذي في طياته تاريخ البشرية المكتوب؛ ووحده المتعلم المؤهل قراءة صفحات هذا

---

[2]_ عزيز طارق ساحد: **الجزائر عبر عصور ما قبل التاريخ**، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2020.، ص، 12.

2_ عبد العزيز بن لحرش: **التعريف بعلوم الآثار: نشأتها التاريخية (علم آثار ما قبل التاريخ نموذجا)**، مجلة العلومالإنسانية، عدد 07، جامعة قسنطينة، 1996.، ص ص، 27-29.

الكتاب الضخم وفهمها مهما حوت من معلومات قد تكن للكثيرين غير ذات شأن يذكر، وهي قمينة أن توصله في نهاية المطاف إلى فهم الأمور الكبيرة والمبهمة[4].

إن هذا الكتاب الذي بقي لآلاف السينين مطويا في باطن الأرض ينتظر من ينزع عنه غبار النسيان، لقي الكثير من التدمير في صفحاته منذ الأزل من خلال ما حدث في العصور الخالية على أساس الطمع في الحصول على ما تحتويه القصور، والمعابد، والمدافن من كنوز، وحلي جنائزي. إلى التوغل في هدم المواقع الأثرية دون عناية أو حرص مما أدى إلى تخريب الأجزاء المهمة في تلك العمائر بل أدى إلى ضياع العديد منها على مر الزمن.

1_ مكونات الموقع الأثري

يتكون الموقع الأثري عادة من مجموعة الأبنية مضاف لها مواد كثيرة مشتركة تتناثر في أجزاء الموقع تتوضع في طبقات مختلفة بعضها فوق بعض تتراكم بمرور الحضارات؛ وعندما يتم التنقيب تنزع الطبقات الأثرية الغنية باللقى ذات القيمة التاريخية والفنية من أجل استخراج الكتابات والنقائش المدفونة، ومن هذا المنطلق قد تتعرض هذه الوثائق المدونة والحساسة إلى التخريب كما تتأثر الروابط التي كانت تحتفظ بها هذه الطبقات بعضها مع بعض ومع الأماكن التي كانت تتوضع فيها.

إن تقصير الباحثين في توثيق أو تصوير ورفع ورسم كل ما يعثر عليه في المسح الأثري أو في الحفرية سيؤدي لا محالة إلى فقدان تلك المعطيات بصفة نهائية. فبواسطة التوثيق وحده يتمكن الباحثون مع انتهاء الأعمال الميدانية من إعادة تصور، وبناء الحالة وفقا لما كانت عليه في الموقع الأثري بطريقة مثلى أقرب إلى الدقة قبل أن يبدأ في عملية الحفر للمرة الأولى. فتلك المعلومات هي التي ستؤدي إلى استفادة أي باحث أثري يحاول أن بستغل تلك المعطيات الموثقة من خلال مقارنتها مع معطيات مواقع أثرية أخرى ترجع إلى الفترة نفسها.

---

[4]_ رودريغو مارتين غالان: **المرجع السابق**، ص ص، 14-15.

أو الأوضاع التاريخية السابقة أو اللاحقة للموقع الأثري نفسه، باستغلال معطيات ترتبط بالفترة المدروسة بشكل أو بأخر.

ولا يغيب عن بال أي باحث أن يستفيد من العلوم المساعدة لعلم الآثار الشيء الذي سيؤدي إلى تطوير مداركنا العلمية والتاريخية عن الأمم والمجتمعات المختلفة التي مرت فوق تلك الرقعة الجغرافية. وعلى الباحث الأثري والمؤرخ أن ينتبها بأن المعطيات التي يتناولانها ينبغي أن يفسر بعضها بعضا عبر تطور المجتمع وثقافته قصد فهم الظواهر المعاصرة التي ترجع إلى زمن معين في منطقة كبيرة أو صغيرة.

ويستحسن ألا يلمس الباحث الأثري أي موقع أثري وألا يباشر فيه ما لم يقم بتسجيل مجريات المسح والتنقيب كافة؛ وعليه أن يتهيأ لمثل هذا العمل قبل الشروع في أعمال الحفر التي ستؤدي إلى تدمير الشاهد المدفون. وبفضل كذلك أن يبقى الأثر منتظرا لوقت لاحق مثل ما هي عليه اليوم أطلال مدينة ستيفيس الرومانية التي أجلها علماء الآثار وتركوها للأجيال الآتية حسب زعمهم حتى يعرفوا بأنفسهم على ماضي بلادهم ويستخرجوا ذلك الكتاب المدفون ويقرؤونه بما يوافق إدراكهم وعصرهم الذي يعيشون فيه ولا ضير في ذلك ربما سيتمكنون من أساليب وتقنيات العمل الميداني المتطور الذي يؤدي بدوره إلى فائدة علمية حقيقية وغير مسبوقة.

وبسبب عدم القدرة على تعويض أي مستند أثري تم تخريبه فلا يسمح مطلقا بتحطيم أو فقدان أي مستند من هذه المستندات. فمجموع تلك المعطيات تسمح بتكوين فكرة واضحة المعالم حول السكان الذين قطنوا ذلك الموقع وعن العصر التاريخي. فإن الدقة، والتنظيم، والنظافة كما مر بنا قبل حين هي المفاتيح الهامة للقيام بعمل أثري تنقيبي رائع. من شأنه أن يضع علم تاريخي صحيح واستكمال النصوص التاريخية وعدم هدمها[5].

---

[5]_ رودريغو مارتين غالان: **المرجع السابق**، ص، 16.

ويجب على الباحث الأثري أن يضع في الحسبان كون علم الآثار علم مثل غيره من العلوم يشكل في البداية إشكالية بحثية رئيسية؛ فهناك قضايا لا تزال مطروحة على بساط النقاش الجاد، وهو يسعى بكل الطرق العلمية الرصينة المتاحة إيجاد حلول مناسبة لها[6]. إلا أن كل حل يتوصل إليه يتطلب هو الآخر طرح إشكالية جديدة وهكذا حتى نصل إلى الحلول النهائية المرضية.

2_ لماذا وكيف يتم البحث عن الآثار

على الباحث قبل الشروع في عملية البحث عن الآثار أن يكون على دراية تامة ووعي لما يحتاج إلى معرفته لكي يجد حلا مواتيا لمشكلة تاريخية ما. فعليه إذا قبل القيام بعملية المسح أو التنقيب أن يمعن النظر في اختياره للأمكنة موضوع العمل، مع تخطيط استراتيجية ضرورية لإنجاز العمل المقبل عليه.

والباحث الذي يظن من خلال نتائج أبحاثه أنه توصل إلى حقيقة مطلقة ومعرفته حضارة معرفة كاملة فهو يعد من السذج لأن أي باحث يحاول البحث عن تفسيرات سريعة وسهلة للوثيقة الأثرية، ودون أن يتوصل إلى حل مختلف الإشكاليات المطروحة التي تهر له أثناء العمل الميداني سوف يظهر بالمحصلة بكفاءة فكرية متواضعة.

فمن صفات الباحث أن يعي حدود علمه، والباحث الأكثر جدية ومواظبة هو الذي يبدي حرصه على عدم ترك أي هفوة أو أي شيء للمصادفة فكل شاردة وواردة إلا بحسبان كما ينبغي أن يكون أمينا في نقل النتائج التي أفضى إليها البحث، ومن ثم تسجيل استنتاجاته شريطة ألا يكون غير مرتجل فيها. وهناك ملاحظة جديرة بأن تذكر مفادها أننا عند قيامنا بالبحث الميداني مهما كانت صفته ودرجة دقته لا بد من إدراك حقيقة علمية بسيطة تتمثل

---

[6]_ رودريغو مارتين غالان: **المرجع السابق**، ص، 17.

أساسا في نقطة محورية هي إعادة تشكيل وتصور جزء من تاريخ منطقة ما في فترة من الفترات وفقا لما قد تقدمه الشواهد والدلائل المادية التي يتم رصدها في الموقع الأثري[7].

ثانيا_ الخطوات الأولى في البحث

يحسن بنا القول أن أيما بحث أثري جديد ينبغي أن يشرع فيه صاحبه قبل أي شيء أخر هو طرح إشكالية معينة مبنية على قراءة نقدية معمقة في المصادر التاريخية والأثرية.

1_ موضوع الدراسة

إن منطلق أي باحث في مجال علم الآثار هو دون شك توضيح المظاهر الغامضة لمعارفنا التاريخية حول التطورات التاريخية لمنطقة ما ومن هنا يترتب الاعتماد على منهج واضح أو مجموعة من المناهج التي تمكن من خدمة غرض البحث والدراسة التي نحن بصدد القيام بها في الحقل الأثري. ويتم هذا الأمر بواسطة علم الآثار لأنه الأنسب لمعرفة أفضل للتطورات التاريخية لمنطقة نجهل عن تاريخها أشياء كثيرة.

ومن هنا وجب أن ينسق علم الآثار مع العلوم المساعدة الاجتماعية والطبيعية على حد سواء، التي من دونها لا يمكن الوصول إلى نتيجة مرضية في نهاية أي عمل ميداني؛ ولا يتم وضع الحلول للإشكالية التي بنى عليها فرضياته وخطط أهدافه لها. وعلى الباحث أن ينطلق من قاعدة تتجمع فيها المناهج التاريخية وغيرها ليتم حل الإشكالية التي تعترضه بجميع مظاهرها. ومن العوائق التي يتلقاها وهي في الغالب ثلاث سنذكرها على النحو التالي:

1_ أن يضطر الباحث إلى التركيز على دراسة تطور منطقة ما تكون معرفته حول تطور تاريخها قليلة نسبيا مما يتحتم عليه توضيح معالم تطورها بناء على قراءات؛ الشيء الذي

---

[7]_ رودريغو مارتين غالان: **المرجع السابق**، ص، 17.

يدفعه للتعامل أكثر مع مجموعة عديدة من الوثائق ذات الصلة بموضوع البحث، واللقى الأثرية المتاحة في مواضع مختلفة تتواجد في مناطق متقاربة وتمثل فترات تاريخية متباينة[8].

2_ أن تتناسب الدراسة القائمة مع دراسة فترة معلومة، بحيث يضطر الباحث إلى معرفة جيدة مجموعة تلك الوثائق الكاملة المرتبطة بفترة محل الدراسة سواء في المنطقة التي سيجرى فيها المسح أو التنقيب أو في الأماكن القريبة منها. ليتمكن الباحث من تكوين فكرة واضحة عن طبيعة وضع المنطقة المدروسة، في الفترة المراد دراستها.

ويمكن في مثل هذه الحال أن يختار بدقة موقع تمثيلي من بين مواقع عدة، حتى يمكنه وضع الإجابات المناسبة لبعض الأسئلة المطروحة وللوصول إلى يقين ما حول عديد الشكوك التي تدور في فلك التاريخ الذي يحد فترة البحث.

3_ باستطاعة الباحث أن يختار موضوع محدد يوجه له عناية خاصة كالزراعة، والصناعة، والأعمال والنشاطات الحرفية المتنوعة. والتجارة، والثقافة أو أي شيء يخص المجتمع في جميع أطواره؛ وهو ملزم بدراسة البحث وفقا لنماذج البندين السابقين عبر التاريخ أو أثناء فترة محددة، ومن أجل كل حالة يمكن متابعة الأدلة المشروحة لكل واحدة منها.

وبعد طرح الإشكالية المقترحة بناء على مجموعة المعارف التي نمتلكها، الكبيرة أو الصغيرة أو حتى تلك التي تبدو سطحية وغير ذات قيمة؛ مع الاعتماد على بقية المدارك والمهارات المساعدة، عندئذ سيتمكن الباحث من بداية عملية البحث وتحديد الوجهة الصحيحة التي ينبغي أن تتخذها الخطوات التمهيدية في هذا الاتجاه أو ذاك.

2_ تقصي المعلومات وجمعها

يتطلب الموقف من الباحث أن يسعى جاهدا إلى قبل الشروع في أي عمل ميداني أن يتكفل بجمع المعلومات المتاحة عن الفترة أو الفترات التاريخية التي يريد دراستها، وعن المنطقة

---

[8]_ رودريغو مارتين غالان: **المرجع السابق**، ص ص، 20-21.

التي سيقوم بالمسح والتنقيب فيها مستفيدا من المعلومات التاريخية كافة التي تتوفر لديه من نصوص مصدرية إن سنحت الفرصة بذلك، أو أعمال المسح والحفريات السابقة حول الموقع الأثري المختار المخصص للبحث.

كما ينبغي عليه الاطلاع على مختلف المعارف التي كانت سائدة، وعلى الحالة المرجعية بشكل عام ومعرفة الفرضيات الموجودة حول الإشكالية التي يريد دراستها وتحليلها، ليتوصل إلى تأكيد هذه الفرضية أو إلى تصحيح أخطائها، وفقا للنتائج التي يتوصل إليها عبر البحث. ولا يفوتنا التذكير بأهمية معرفة الباحث لجغرافية المنطقة موضوع البحث ليتمكن من فهم الإطار الذي حدثت فيه التطورات في تلك المجتمعات القديمة، من ناحية محيطها الطبيعي، وما مختلف العوائق التي فرضتها البيئة في هذه المجتمعات التي فرض عليها أن تقوم بمواجهة المعضلات التي واجهتها؛ من خلال تطوير بعض الأعمال أو من خلال إظهار التقدم الاقتصادي، أو نمو المجتمع، وازدهاره الثقافي.

ومن الأمثلة التي نسوقها هنا على هذا القول ما قام به الفراعنة عندما حاولوا السيطرة على فيضان نهر النيل ببناء القنوات والمنشآت المائية التي مكنتهم من الاستفادة من الثروة المائية وتوظيفها في المجال الزراعي مما أدى إلى تطوير في التقانة التي سمحت بدورها في ظهور أعمال هندسية مائية ضخمة.

ومن الأشياء التي ينبغي الاضطلاع بها معرفة طبيعة الإمكانيات التي قدمها الوسط الطبيعي لمجتمع ما ليتمكن من الاستفادة من ثرواته الطبيعية وهل هناك اتصال بين مختلف المجتمعات أم أن هناك عزلة بينها. وفي حالة وجود تواصل ما هي أهم طرق المواصلات التي ساهمت في ازدهار التجارة أو الثقافة لهذه المجموعة أو تلك.

فعلى ضفتي نهري دجلة والفرات لم تنشأ حضارات منعزلة فقط، بل نشاط تجاري كبير في الألف الرابع قبل الميلاد في فترة ازدهار السلالات الباكرة السومرية في أوروك، وكيش،

ولكش، وسومر، وأورنامو حيث تلقحت هذه الدول المدينة سواء في شمال ما بين النهرين أو في جنوبها فلا يصعب تعقب المبادلات التجارية أو الثقافية التي كانت بينها جميعا ربما حتى في الألفية الثالثة فيما بعد. وما يجب التأكيد عليه ضرورة الاهتمام بمجموعة الوثائق

التي لا تسمح فقط بمعرفة الوضع التاريخي، وإنما تعرض الوسط الجغرافي للفترة المدروسة.

والتي قد تؤدي إلى إعطاء أكبر كمية ممكنة من المعلومات حول المحيط الذي تطورت فيه الإشكالية المراد التصدي لها بالبحث. إن تلك الوثائق هي المادة الأولية الخام التي يجب أن تنظم لقراءتها وفهمها، والتي يستحسن الاحتفاظ بها طوال فترة البحث وربما حتى بعد الانتهاء منه.

علاوة على ذلك يجب معرفة المعلومات التي نحوزها عن الشواهد المادية لأن ذلك يشكل الجزء الأكبر والأهم من مجموعة العناصر الأساسية، التي يمكن الاعتماد عليها للتمكن من القيام بالعمل الميداني على أحسن وجه.

يستطيع الأثري أن يحصل معرفة جيدة حول الوضع المرجعي لموضوع بحثه، وأن يكون فكرة عن مختلف المشاكل التي ستواجهه وينبغي ان يقدم لها حلولا وعن الإمكانيات التي يرصدها من أجل تحقيق ذلك، ووضع استراتيجية عمل.

1_ بإمكانه أن يختار العمل المرجعي فقط، فقد تظهر بعض المشاكل أحيانا يمكن حلها من خلال إلقاء الأضواء عليها، أو من خلال الترتيب الجيد للمعلومات المتاحة.

2_ يمكنه دراسة الأشياء التي عثر عليها لإنجاز كناش منظم للمعلومات على شكل دوسيه، بناء على معايير الدراسة.

3_ إجراء مقارنات من خلال دراسة مناطق بذاتها، والاتصالات التي كانت بين الأقاليم المختلفة.

4_ القيام بدراسة الشبكة الطرقية للمواصلات، وطرق التبادل التجاري التي كانت تتم بين الأقاليم. وهنا لا بد من ذكر كتاب بيير سلامة الذي ألفه حول الطرق الرومانية في شمال إفريقية فهو حجة في هذا الأمر.

5_ يمكن برمجة مسح أثري لدراسة المواقع الأثرية الموجودة في المنطقة التي سيدرسها، ومعرفة ما هو توزيعها، وما هي اللقى التي سوف يعثر عليها فوق سطح الموقع الأثري.

6-يتوصل في النهاية إلى نتيجة مفادها أن عملية المسح أو التنقيب في الموقع الأثري ستؤدي إلى إيجاد معطيات ضرورية توضح المشكلة المعروضة. وعليه ألا يتجاوز حدود الاستراتيجيات السابقة.